(مختارات)

أحمد العلي

كما يغنّي بوب مارلي

(دليل التائهين إلى نيويورك)

2014

المحتويات

- دليل التائهين إلى نيويورك
- كما يُغنّي بوب مارلي
- يشيخ أمام الشاشات
- رسالة تبصُق دمًا
- الهارب من الحَفل قبل نهايته: غراتسيا
- قفص هانيبال
- أسماؤنا وحدها أثاثُ المقابر
- سُبَح تُغرغر بالضوء
- البرد، خيّاط الله

دليل التائهين إلى نيويورك

تُمتحن الحياة بالجغرافيا، كأنّ الكائن في بيئته الواحدة ينسى اختلاف التضاريس، وكلّما شقّ بقدميه محيطًا مُكتمل الزّرقة، نمَت في صدره شجرة البُنّ، و انفرجت وُريقات اليقظة.

للصّور ثلاثة أبعاد تجري بها عجلات الزّمن، و للشّعر أبعاد مأخوذة بأحداق اللانهاية، منها بُعد الليل، بُعد الندم، بُعد استنشاق الغرق والاختفاء في الحشود. وإذ يُراكم المخلوق أبعادَه، يخرج من (شِعر الغرفة) المكنوزة بأنابيب التيلسكوب وقناني الكيمياء ودم الكهرباء في الشّاشات المضيئة، إلى (غرفة الشّعر)، حيث لا بدّ لجِلده أن يُدَعك بالفَرو والريش، حيث يُخدَش بالنّاب والجرّافة والشّوك والفرح، حيث رصيف الهواء والموت يموّه هيئته مع الواقفين، حيث أحاجي الجسور و أكباد الدكاكين وفضاء الملاعب.

كانت غرفتي نيويورك، وإذا عطشت، فتحت ثلّاجة مانهاتن.

كما يغنّي بوب مارلي

(1)

إذا وجدتموني ميتاً بطريقة غامضة، فالمشتبه به هو بوب مارلي. يرقُصُ كأنه يتفادى رصاصَ الدمع، غزيراً و منهالاً من كل صوب.. كأنه يطأُ ظلمات السجون المتعانقة من آلكتراز إلى سجن العبيد. يرقص.. كأنه المجنون الذي لا تكتمل قريةٌ إلا به مخفوراً بالأزقة و أسرار النوافذ. أيُّ يومٍ ستُخرجه الآن من صندوق التعب يا بوب؟ اسمع، أعرف أنهم بخير، و يكبرون بعيداً عن ناظري، أنا أيضاً أكبر بشكل حسنٍ و يعجبني.. لكن،

ما حيلة المغبون في غربته؟

كُلّما جلس على الأرض ليأكل

تنادت أصوات أهله

و أفسح لهم المكان..

يُفسحُ، ينتظرُ، يبكي

و يُربّي الجوعَ

أليفاً

قطّةً في المنزل..

تلُفُ سيجارة من نبتة الوله يا بوب، أم أدعكها بأصابعي في بئر الغليون؟ بئر تحترق أحشاؤها بما نلقيه من حَطَبٍ حيٍّ و يتنفس، ترى في ظلمتها عيوناً تنظر إليك، عيون ما أكثرها- إنه دُخان الذاكرة يحملنا حيث الوجوه التي تُحدّثنا بما تشاء، ولا تسمع منا ما نشاء.. إنهم في كل جهة يا بوب، و عندما مشيتُ حتى وصلت سنترال بارك، وقفتُ في المكان الذي سقطتَ فيه، سقوطاً حُرّاً من هلكوبتر الوقت، وغنّيت لك... من يُطفئ الغليون بعدك؟ مَن يتعقّب العالم مثل نشرة طقس؟

يا مريض موسيقى الريغي، سلامات.. هل ميّزتني؟ أنا أحمد..

هناك من كان يتعقبنا منذ البداية.. وفي زاوية الطمأنينة تماماً أشعل الكشافات، و رآنا في الغيمة..

أنا أحمد، الأعزل إلا من جمجمة الطائر.. مُتهمٌ بالزهايمر دوماً، و دوماً في الصف الأخير من عُلبة الكبريت..

مهما فكرنا باحتمالات المقعد المجاور.. بحالات الأدرينالين، لنا مربعات الشطرنج قسمةً متساويةُ في هذا العالم، و سنصلُ سوياً يا بوب، للحرية و الحب.. و أخبرك بالفاجعة؟ انتهت صلاحية الريش، وجمجمة الطائر انتبذت قصياً في الكتابة..

ولا عليك، لا عليك..

و إن كان العالم يركّب أخطاءه مثل مكعبات الليجو،

و إن لم يعد للحب خدٌّ يلمعُ مثل قطع شواروفسكي..

لا عليك

و إن لم يعد الأطفال يلتفتون لوحدة الحصان المزركش في لُعبة الأحصنة الدوّارة

لا عليك

لم يعد للأنبياء مكانٌ بيننا،

صارَ الوحيُ خياراً في منيو مطعمٍ إيطالي، و صارت الرسالات توليفة غيتار..

يشيخ أمام الشّاشات

(1)

كنتُ طفلاً عندما قالت لي فتاةٌ أحببتها أنّني (ثقيل دم).. بكيتُ كثيراً و لم أنسَ، تحايلتُ على هذا المرض بالضحكات العالية، العالية مثل مئذنة، يلتطم صداها بالجدران فترتحلُ و تذهبُ بعيداً، بعيداً، لأماكن مظلمةٍ و مُخيفة، حيث تلقاني هناك بانتظارها، بعيونٍ حُمرٍ و واسعة، بمخالب لكشف زيفها.. ضحكةٌ ترتعد مثل فتاةٍ تائهةٍ لا أحد يبحث عنها. و الآن، في السادسة والعشرين، رمتني أُخرى بنفس الرصاصة.. تلامَسَت السنينُ مثل تدويرة الخاتم، و اكتملت العُقدة. الحل مع دمي الثقيلِ إذاً أن أصمت، أن تشيخ هذه اللّفتاتُ من الحزن رغم ضحكي على أبسط الأشياء و أتفهها. أن لا أروي ما صادفني في الشارع أو النادي أو تويتر.. لا أملك القدرة المائية على دحرجة نكتة من فمي، هي تعلق هناك، تتعثر مع تموجات صوتي و ترتبك حروفها و أنسى نهاياتها و كيف بدأت، تموت الوردةُ في الفم، لكن من يراها في قلبي؟ أنا الذي أضحك على نكاتٍ سمعتها منذ سنوات كأني أسمعها الآن لأول مرّة، تدمع عيناي حينها و أرجف و أكح و أشعر أني أنزلق على صابون في أرضٍ ناعمة و واسعة.

أخافُ الحديث مع أحدٍ لوحدي.. أخاف الخروج وحدي مع أحد.. أن أكون المفك العالق في بَكرة الوقت.. الوقت الذي يجعله الضحكُ على لوح تزلُج، بارداً و سريعاً. توقّفتُ عن محاولاتي لأحكي ما يُبهجُ منذ أن رأيتها تتجاهلني لتضع سكراً في الشاي أو تلتفت إلى التلفزيون و أنا في منتصف معركتي لجعل ضحكةٍ تحلّق حولنا.. توقفتُ في المنتصف تماماً عندما كان يسهُلُ على يدها أن تتحرك تجاه أي شيء، على عينيها أن تدور و تتذكر و ترحل، على قلبي عندما أعي هذه الحقيقة و أشعر برأس المدية مسنوناً ينغرس ببطئ في جانب رقبتي. لا أدري. لا أعرف. ربما السبب أنني من جيل الشاشات.. الجيل الذي له شخصية إلكترونية ذات إيميل و صورة رمزية، و شخصية ذات لحم و عظم.. كنت الملك في غرف الدردشة، لا تستعصي عليّ فتاة لفرط ما كانت أصابعي تمتد لتلامس خاصرتها و تدغدغ الإبط الليّنة و باطن القدم.. لكني لستُ سيّد الجلسات.. لستُ الأمير الذي لا تبدأُ السهرةُ إلا به، و نرفعُ الصحون إذا صرعه النوم.. لستُ الذي يتداعى الحديثُ من فمه تداعي الأطفال في فسحة مدرسة، ليس في تعابير وجهي ما يوحي بالكوميديا، ليس في لفتتاتي ولا لغة جسدي ما يدعكُ القلوب ليُخرج ماردها نافضاً الغبار و موسّعاً المكان و غارساً نهراً و أشجار رُمّانٍ و شُرفةً عائمة.. لستُ خفيف الدم رافع الكأس الأولى، مُشعل حطب الليل، البداية و النهاية، الكلام الحلو، الكاميرا و الممثل في آن.. لستُ هذا النبي، لستُ ذاك الشيطان.

رُبما أعيشُ كالعطر.. ألتهبُ و أصيرُ حديقةً على جلد أحدهم، و أكون النفاية المعتّقة على جلد آخر.. لكن أهلاً بالعُقَدة الجديدة.. لم تكفني عُقدة الأماكن المغلقة، أستطيعُ مع هذه أن أختفي أو أتعذّر بأي شيء لأتفادى

ركوب الأصنصير أو رفض أن يُغلق عليّ أحدٌ باباً.. لكن عقدة الدم، عُقدةُ الوجود الهزيل، لا مكان لها سوى أن تُعلّق مثل ربطة فيونكا تحت الذقن و أمام الرقبة، و أن لا أستطيع لمسها أو تحريكها كالبياض في قلب مكعب ثلج. سُحقاً إذاً، عليّ أن أموت سريعاً قبل أن يُلطّخ دمي الأرض و الجدران و الأسقف.. كيف سيغيّرون الكوكب لو حصل ذلك؟.

أُفكّر. أفكّر. أين خفّة الدم في (ألا هُبّي بصَحنك فاصبَحينا)؟ أينها في (حيّيتُ سفحَكِ عن بُعدٍ فحيّيني)؟ أو (ها هو السّهرُ المُر، يأتي، و يُشعلُ قنديله)؟ أو (ما أهون الجبلَ في يد الضباب)؟ أو (وسّد الآن رأسك، مُتعبةٌ هذه الرأس، متعبة)؟ أو (دخلَت، فتنفّسَ جمرٌ رقيقٌ في لفتات العيون)؟ أو (أُشعل قنديلَ الباب لألّا تطيشَ بغتةُ الصديق)؟ هل عليّ أن أسكب الشعر كله هنا، كل ما قرأت و جعل الدمع ينحدر كعروق الذهب على صخرة وجهي؟ ماذا أفعل؟ لماذا كانت أمي تضحكُ عندما أخبرها عن أي شيء؟ أمي.. أمي.. أمي.. كانت هذه خديعتُكِ الأمضى.. كان عليك أن تخبريني أنني ألقي النكتة كمن يسدّدُ فاتورة، أن وجودي في الصالة كان مكابدةً كمشاهدة دعايةٍ بطيئة و سخيفة.. لكن كيف لي أن أعاتبها؟ و هي التي إذا غنّت، تهتزُ مهود الأطفال أينما كانوا، في راحات البيوت و عَراء الأمكنة.. كَبُر أصحاب المهود، أحبوا و بكوا و تفتحت الحقائق كالقِمصان من حولهم، اشتروا مهوداً أخرى، الأزرق للأولاد و الوردي للفتيات.. لكنها أمي التي حتى الحُمّى تحت عينيها أجمل.. حتى الخديعة بين يديها، نبيلة.

أُحدّثُ الآن فيفيانا.. أجملُ إيطاليةٍ في نيويورك، عندما رأيتها تبكي لأن البنك السويسري حَجَرَ على مالها القليل، أدنتُها مالاً و كسبتُ صداقتها للأبد. أُحدّثُ الآن فيفيانا، بهجةُ الفصل و التلاميذ و طاقم التدريس.. التي بكت عندما جاءت هنا بلغة إنجليزية ركيكة، فلم تكن تجيد إلقاء نكتها و تعليقاتها كما تشتهي، ولم تُجد اللغة إلا لهذا السبب.. أن تزرع بين كُل شفتين غيمة. أُحدّث الآن فيفيانا تاركةً خلفها من لم يتعلّم الدرس.. رُبما لو رأتني أبكي لأن الله حجرَ على خفّة دمي، لوهبتني بعض سُكّرها.. بعض هذا المصل الحميم الذي يُقرّبُ الناس و يجلو الوحشة و يُضيءُ الزوايا و يُرجرج العيون.. ضاعت فرصتي الأخيرة، لن أقول ما يُبهجُ بعد الآن، لن أكتب كلماتٍ تدّعي إنها بالونات مرتفعة أو مسدسات ماء.. لا أستطيع هذا.. أكتب ربما كما يتحدى اثنان بعضهما، بتحديق الأعين على وسعها ببعضها البعض: أيهما يُغمضُ أولاً.. بهذه الحرقة و السذاجة و الملل. لماذا؟. كيف جرى هذا؟. بدأ كره الرّفقة يبني عُشّه فيّ.. كرهٌ كطائرٍ أسود يصطاد في النهار ما يشتهي و يلقيه في العش.. سيكبر العش، و سيلتقطني الطائر الأسود بمنقاره و يرميني فيه. أنا وحدي. رجُلٌ آليٌّ وحيدٌ. رجُلٌ من سيلوفان، لا يراني أحد،

كنتُ الصغيرَ الذي إذا رأى الكبار يضحكون

يضعُ على فمه كفّه الصغيرة

و يبدأ بهز أغصانه،

يكتُمُ أصواتاً و يغمض عينيه

و يميلُ بجسده للوراء كقتيل الفرح..

كنت الصغير الذي صدّق أن من حوله صدقوه.

فتّش ثيابك جيداً

لا تملك سوى حبّات حلوىً صغيرة

تُعطيها الأطفال لترى ما كنت تفعله،

لتتعلّم الآن كيف تتقنه جيداً،

ليصدقك من حولك

إن بقي منهم أحد.

(2)

خُذ لعَرَق الجبين صورةً و ضعها في ألبومك، يا جامع العملات، بخفّةٍ تحت رُقاقة البلاستيك الشفّافة، عُملةً ورقيّة قديمة كصكوك الحج الأولى.. أو دعه يتدلّى ولداً باراً لكل فردٍ من سلالتك في شجرة العائلة ، إلّا هذا الجيل المرفوع بمخلب جرّافةٍ تهدم العالم. سَل مُخرجاً أن يصوّره لثوانٍ معدودة ساقطاً من مفرق الرأس، كسقوطنا في أحلامنا من شاهقٍ ثم نصحو فزعين نتلمّسُ أطرافنا و مُحبين للحياة.. يوضَعُ العَرقُ الآن في متحفٍ يليقُ به، بوصفه مخلوقاً نادراً و قيد الانقراض دون أيّ محاولة لإنعاشه بكفّين تضغطان على القفص الصدري، تدفعان القلب ليصحو... تم تسجيل مقاسات العرق و شكله و ظروف تكوّنه كظاهرة طبيعية خارقة لأن جيبَ العالم ومحفظته هنا، في وول ستريت؛ والدُ الجلطات الاقتصادية دون أن يعرُج أو يطلب عصاً يتوكأ عليها.. سرطان البزنس، سكاكين شركات التأمين و ألغام الماستر كارد و قفّازات السياسة الناعمة.. البنوك مساجد و على رقبة الصّيرفي مفتاح الجنة. التّاجرُ مستلقياً على الكنبة طوال الوقت، لا يسيرُ على أرضٍ ولا يرى أحداً.. الدراهمُ أرقامٌ في كيابل متينة، أشجارُ ورق المال تنمو في الشاشات وحدها، لا أحد يخترعُ شيئاً، العاملُ أغلق مصنعه و الفلّاحُ تمثالٌ في الحديقة، فقط وحوشٌ ببدلاتٍ رسميّة و شُنط كلاسيكية و بطاقات عملٍ أنيقةٍ جداً (اتّصل بي)، لا صوت بكراتٍ تدور ولا ريحٌ تُطيحُ ثمرة، كل ما يحدث أن مُضاربو البورصة يُحرّكون المال في وول ستريت في دوائر لا تنتهي، كالطاقة، تنقص في مكان لترتفع في مكان آخر. وول ستريت الطمع.. ألعاب الحظ، مونوبولي، سلالم الأفعى و البوكر والنرد و الاتكال على الله.. الجبنة و الفأر.

(3)

رأسي صالةُ سينما بلا تذاكر للبيع ولا مدعوين.. أصلُ لوجهتي كما تصلُ رسائلُ الحَرب، مدكوكاً، محترق الأطراف و فرحاً بالنجاة من الشوارع، الكثيرُ لأحكيه و يغافلني ثعلبُ الشّاشات.. تُحاصرني إضاءة جهازَي موبايل و لابتوب و تابلت و تلفزيون.. أذهبُ لشاشة الصراف، انتظر القطار بقراءة أحوال الطقس و معلوماتٍ ظريفة في تلفزيونات المحطة، مشاريعي الجامعية كلها لا تُنجز إلا على الكومبيوتر.. في السيارات، المولات، إعلانات الشوارع، في المسجلة و الآي-بود و الرسيفر.. رَبيبُ الشّاشات يقترحُ أن توضع شاشةً حيّة بدل شاهدةٍ حجريةٍ على قبره؛ تعرض صورته و معلوماتٍ عنه، وصيّته و صندوق رسائل للزوّار.. و لن يكتمل المشهد يا رب، إلا بأن يكون الحسابُ باختيار الإجابة الصحيحة؛ شاشةُ لمسٍ كبيرةٍ بحجم الكون، و أنا بأسمالٍ بالية وسط طابورٍ طويلٍ من الحُفاة في دُكنةٍ هائلة، نختار الأجوبة و ندلفُ أبواباً لا نعرفها إلى الجنة أو الجهنم... رأسي صالةُ سينما بلا تذاكر للبيع ولا مدعوين..

فالبيتُ بيتُك

يا رب.

رسالةٌ تبصُقُ دماً

(كانوا حول الطاولة وأنا أكتب، يتحدثون و يترقرقون)

(1)

(الخطُّ السيّء قذىً في العين)، قالت العرب القدماء.

من أبٍ سيريالي يُدعى سلفادور دالي، ابتُكر خط اليد المتطاول. هذه فرضيتي. كرّس دالي تطاول أشيائه المرسومة في لوحات كثيرة، كأن يجعل للفيل أقدام زرافة ترفع رأسه الى الغيم.. و لأن التشكيليين السيرياليين لم يتركوا فنّ الخط وحده، بل عاثوا فيه حُبّاً.. فقد كان لصديق دالي، الشاعر الإسباني فيدريكو غارسيا لوركا- نصيبٌ من هذا الألق؛ كان يكتب اسمه Lorca مبتدأً حرف L من أعلى الصفحة و ينتهي في وسطها على شكل يد مظلة، أما حرف F فيبدؤه من وسط الصفحة منتهياً به في آخرها، أما حرف g فيكتب الدائرة العلوية للحرف كأنها قوقعة حلزون، ثم يمد باقي الحرف للأسفل في قوسٍ واسعٍ كأنه رأس صنّارة.

المُطّلع على مخطوطات نزار قباني سيعرف أن خطه أنيقٌ ومتتابعٌ كأظافر النساء، و إلى جانبه يقف جبران المتأثر بالخطوط المغاربية الساحرة.. لو مزجت الخطين مع تأثير التطاول في خط لوركا، سيقفز أمامك خطُّ أدونيس، ومنه سلَلتُ خطّي المتثائب.. لم أستطع هذا إلا بعد أن عزمت على كتابة القرآن كله بنفس الخط، وعندما انتهيت من البقرة و النساء، قلت يكفي، اعتادت كفي، لكني انتهيت لتصديق جدي: تستطيع إصلاح كل شيء، إلا خط اليد، عليك أن تُولَد مرة أخرى لمثل هذا.

(2)

أدّعي أن لآية الكرسي في الخط العربي مكانة العرش و الجذر والشهوة.. يُمكنُ تتبع تطور العربية نفسها في التنقيط والتشكيل و الخط والتلوين عِبرَ جمع مخطوطات آية الكرسي؛ تعويذة أبواب بيوتنا، وأكثر ما حفظته مياه الذهب والفصوص الكريمة، صديقة خوف الأمهات، زهرةُ النوم وصندوق السر و أغنية التعب.. منها أتلصّصُ عليكم

(3)

بمياه العين البيضاء، بالعمى نفسه، و بأمل قميص اللغة أن يُلقى على وجهي في أيّة لحظة، وقفت في مانهاتن أمام مخطوطات وأيادٍ لم أكن مستعداً لها؛ رأيت إهداءً نادراً للزعيم الألماني أدولف هتلر على كتابه (كفاحي)؛ وُقّع الإهداء في ليلة كريسمس عام 1920، تبدو يده فرحة، ويبدو أنها دلقت من كأس الشامبين قطرةً على الإهداء (تلك البقعة الصفراء التي في الزاوية، هل تراها؟) أو أن البقعة حَرقٌ بسيطٌ من طرف سيجارته عندما قرّب الكتاب من عينه. خطُّ هتلر الذي لا أفهم لغته، يبدو كأعمدة كهرباء خشبية؛ أعمدةٌ متصلةٌ ببعضها من

الأعلى فقط، تحط عليها طيور كثيرة. أما حرف H في بداية اسمه، فيرسمه على شكل رمز اللانهاية في الرياضيات (∞) لكنه مكسورٌ في الوسط بشيء غامض، كأن في العلامة سردابٌ خفيٌّ ولا نهائي، وهتلر وجد الباب وأطل برأسه منه، رُبما لهذا يعرف أنه سيموت منتحراً، ولهذا أيضاً كان لايستطيع كتابة اسمه إلا على شكل مُنحَدَرٍ أو حافّة طاولة، يبدأ اسمه مستقيماً ثم تتوالى الحروف مائلةً أكثر فأكثر حتى تنحني تماماً للأسفل. كان ذلك في معرض الحرب العالمية الثانية في نيويورك (تعتبر مانهاتن أول ميناء في العالم، وكانت بروكلين غرفة التحكم الأمريكية في تلك الحرب)، وخلال تحديقي في يد هتلر، كانت يد أنشتاين تشير لي من وراء ظهري، رأيت انعكاسها على الزجاج، فالتفتّ.

على بُعد خطوة نهر من مكاني الآن تماماً، وُلد ألبرت أنشتاين وأُحرق جثمانه ونُثر في مكان غير معلوم، واحتفظ طبيبه بدماغه!. هذه رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي روزفلت طالباً منه الإسراع في دعم (مشروع مانهاتن) لصناعة القنبلة الذرية. هذه الورقة بذرة القتل، بذرة هيروشيما وناكازاكي وتسديدة الطعنة الأولى لتراب الأرض، هذه يد قابيل.. يده تشبه الوقت؛ ذاهبةٌ وذائبةٌ ولا تتراجع، ليست أنيقةً أبداً لكنها صارمة: ليس لألياف الورق حُريّة امتصاص الحبر كما تشاء، هذا الخَطُّ ساعةٌ تدق اثني عشرة مرة عند الساعة الثانية عشرة.

اليدُ الأخرى تقول إننا نتاج عمليتين حسابيتين فقط، الجمع و الطرح.. هذا ما حاول داروين إثباته عِبر شجرة العناصر البسيطة التي رسمها في مسودته هذه. ياللجنون، شجرةٌ برأس أشعث و جذعين، ينبت من فروعها كلامٌ لا أعرفُ هل هو حديث الغصن أم إيضاح داروين.. كأنه يكتب بمنقار طير، إذ لا يرى إلا الغيوم.. أو كأنه يكتب بإصبع صغيرته التي قتلها المرض، فارتاع من الكون، وباح بسره.

مُطرقاً خرجتُ من غرفة داروين في متحف الجنس، و سرتُ إلى المكتبة العامة.. صوت قلبي أعلى ضجيجاً من كل شيء، أعلى من نفسه.

(4)

مقتنياته؛ لوحاته ومخطوطاته، صوره والإصدارات الأولى من كتبه وغيتاره، كلها تُحيط برسائله لعائلته، وبخاصة أخته صاحبة وُريقة الشجرة الحمراء، ومشبك الشعر المُلثّم.. تلك الرسائل ترفعُ حرارة المكان.. لاشيء مميز فيها سوى هذا الدفء الذي تبعثه للمحدّقين فيها فيتذكر أهله، تعلو وجوهُهم في انعكاس الزجاج وتغرق.. ليلتها.. ليلتها، نمت في بيت جدي، البيت الذي ينام -هو نفسه- في مكانٍ بعيد.

لو أن لرأس الفرس الحُرّة، أثرٌ في الهواء، لكان هذا الخط.. سيّدُنا لوركا يُطوّع يده للنص، إن كان رسالة فهذّب جموحها، يضع عليها السرج ويلكز بخفّة حتى يصل.. أما إن كان شعراً، فأغمض عينيك.. سيتركها سائبةً مثل أصابعه السائبة على الغيتار.. ستجد الخربشات في الورقة أكثر من كلامها؛ الدوائر التي تحيط بمقاطع تنقلها من مكانها لمكان آخر، فضاء الطير، سهم الإشارة لخلف الصفحة، كأنك تقلب الفضاء قَلبَ الطاولة، أو تنظر إلى السماء من أعلاها، لا من الأرض.. هكذا ترفع الورقه للأعلى لتجعل ضوء السقف يخترقها، كأنك تتأكدُ من

كبد فَصٍّ كريم، سترى ما لم يره أحد، و ستقرأ ما كتبه لوركا لك أنت، أنت وحدك، تراه لمرة واحدة ثم يختفي إلى الأبد.

حفلة الجاز كلها، بعازفيها وظلام حانتها ودموع الذهب في مُقل الأصدقاء، عشتها أمام رسالة سلفادور دالي لصديقه لوركا. رسالةُ دالي تبصُقُ دماً، رسالةُ دالي لا تعرف رونق الوجه المُعافى.. أقربُ لأن تكون صحيفةً جنائيةً من أي شيء آخر، وضع تحت بعض الجمل خطّاً، و قسّم الرسالة لأجزاء، وعندما أحس أنه يقترب من نهاية الصفحة، بدأت يده تضرب الهوامش وتتنفس المساحات الممكنة.. أظن أنه أغمي عليه قبل أن يُنهيها، فأُرسلت عنه.. هذا حالُ الكائن، وهكذا يكون مآلُه، كل شيء ينفد فجأة حتى تنفد أنت من يد الآخرين.. نفد دالي، لكن رسالته لا تزال تسعُل، و تبصق دماً.

(6)

هذا إيوان إمامنا شيخ الجغرافيين الإدريسي، هنا قسم الخرائط في المكتبة حيث ينتظرني كولومبس و بحّاروا مالطا وقراصنة عُمان خلف الباب.

رَسمُ خريطةٍ للعالم، هل يبدو هذا سهلاً؟ هل يبدو طبيعياً؟ ؟ أن ترسم خريطةً للأرض! هل تعرف ما الذي يعنيه هذا؟ يعني أن تُقسّم روحك في ثلاث: الشراع و الفرجار و البوصلة.. أن تلمس حوافّ القارات برؤوس أناملك عندما تُبحر.. و تزيح الرمل هنا وهناك لتغرس جبلاً أو قلعةً و أنت مُنحنٍ بالفرجار على الورقة.. إنها تعني المعجزة، و المعجزة في الأب، كيف يُحب طفله فور أن يُقالَ له: هذا هو طفلك. ليس في الأم غامضٌ و كهفيٌّ وغير مفسّر، العلاقة الجسدية الحميمة تنشأ بالالتصاق طويلاً حتى بوسادة أو كرة أو قطّة. المعجزة في الرجل، كيف يُصدّق، يُراهن، يبذل فيُنالُ منه فيسعى، حتى إذا انتصف النهارُ، تعرقلت قدمه وصرخ: لم أسقط، لكننا أغمضنا أعيننا بسُرعةٍ مُدّعين الجهل.

نحن في حاجة إلى تسجيل الحضور الجسدي للأرض.. خرائط العالم القديمة تُحَف فلسفيّة تختصر نظرة الشعوب البشرية إلى العالم. الإمبراطورية الصينية -مثلاً- رسمت العالم وفق تصورها على أنه مكون من الصين أرضاً وحيدةً بيضاء في الوسط، مُحاطةً بمُحيطٍ أزرق تعوم عليه جزر حمراء صغيرة وغير مأهولة.. وفي المُحيط نفسه سورٌ جبليٌ يُحيط بالصين و جزرها مشكلاً سوراً حامياً وسط المحيط، وما خلف ذلك السور هو امتداد المحيط اللانهائي وأشياء غامضة. البوذيون لم يكتفوا برسم الكرة الأرضية وموقعهم منها، بل رسموا الكون.. بإطارٍ مرسومٍ على ورقة صفراء، إطارٍ من زهور وردية صغيرة و متعانقه ومتسلسلة حول الصفحة، بخطٍ لا يُقرأ إلا بالعدسة كُتبت عناصر الفضاء خارج المحيط ثلاثي العُمق الذي يغلف الكرة الأرضية.. وعلى المحيط صورٌ يبدو أنها لغرق أو وحوش أو آلهة؛ رجل وامرأة، جرّة، سفينة، فيل و تنين!. في وسط الكرة مستطيلات متجاورة كمربعات الشطرنج إلا أن نهراً يقسمها طولاً وعرضاً فيعزلها عن بعضها، وفي وسط هذه المستطيلات العائمة عينٌ برتقالية، غُرفة قيادة الكون. في شمال الكرة قلعة، وفي جنوبها قلعة أخرى.. هل كان العالم

منقسماً بين شقيقين؟ هل يزورون بعضهما؟ هاتان القلعتان لم تظهرا في كُرة الإدريسي، لكن ما ظهر هو جزر الواقواق التي يختبئ فيها الخضر والمهدي (في منطقة بين القطب الجنوبي والصين)، ما ظهر هو موقع سور يأجوج ومأجوج الحديدي الذي رفعه داوود ساداً بوّابة وادٍ يمنع شعب يأجوج من افتراسنا (شمال روسيا)، سجنهم هناك.. هل من مصورٍ شابٍ يحمله قارب لهوه لتلك الأماكن، يصوّر الخرافات على طبيعتها، تسبح في البحيرات وتصعد درج قوس قزح لتسليم الرسائل. اليمن هي شمال الجزيرة العربية وإفريقيا على يمينها، هكذا رسم الإدريسي الأرض منعكسةً على مرآة.

تختلف الخرائط، هناك خرائط للكرة الأرضية، وهناك خرائط للمدن.. خرائط المدن تهتم بأماكن سكن الناس و تواجد طعامهم و جسور المدينة وطرقها وقنواتها المائية وقصر الأمير وبيت الساحرة. خرائط المسيحيين - مثلاً- مُحاطة بذراعي المسيح وجدائله نائمة على كتفيه.. و في عهود الإستعمار ساعدت الخرائط -كما ساعدت القطارات على نقل العبيد- على احتلال الأراضي وتقسيمها. و لرسامي الخرائط سمعة كسمعة ممثلي السينما و كاتبي الشعر و مؤلفي المسرحيات.. لا تنتابهم غفوة عن بعضهم في الرسم والتقاط المعلومة ومقارنة الخرائط والنوم على الفرجار الذي يدور و يدور و يدور دون تعب.

أثقب الأرض لترتاح، أيها الفرجار،

ليتني أستطيع ذلك.

(9)

تنمو معك المكتبة..

تتجاورُ كتبٌ يتهامس مؤلفوها

هكذا تجد طاغور يضحك مدلدلاً قدميه في النهر مع ماركس، وتجد ديوان دنقل يزحف تحت الكتب كما زحف سبارتاكوس، يبحث عن عينيه المفقوأتين..

تنمو معك المكتبة..

تتقادم بعض أجزائها وتُظلِمُ فتخاف الذهاب هناك، وحش الذاكرة يجولُ ويتربّص.. كُلُّ خدشٍ فيها هو ندبةٌ في صدرك، كُلُّ خشبةٍ امتدادٌ لعظامك.. و ما قضيتَ من حياتك معها سوى عشرة دقائق، يالسخف الوقت.. عشرة دقائق فقط.. لكنها كانت تحت الماء..

تنمو معك المكتبة..

كل تجعيدة في جبينك رفٌّ جديدٌ، كُل طيرٍ تراه كتاب شعر؛ الأصوات في رف الروايات أصوات شارع خلفي؛ صراخ، عاهرة تستند إلى جدار، نيون أحمر، حقل وصوت ثيران تتدافع و هسيس غابة. رفُ الإنسانيات يتكتك

كبكرات الساعة، مهموم بالكهرباء وشريط القياس ومحاولات الطيران.. و هذا رفٌّ أشباح اللغة، هنا أدواتُ الذقن الحليقة و حرق العطور، هنا يُستحضرُ الزمنُ كأن يُنادي رجُلٌ على طفلٍ في الرصيف الآخر أن يأتي له منتبهاً من السيارات، فتبدأ احتمالات العبور ومآلاته.. فالكتابُ من كتبك بمخاوفك وأحزانك وعيوبك..الكتاب من أفرَدَ لك وحدك في صفحاته طاولة، وقدّم لك القهوة، وقرّب أصابع السجائر: تأمّل العالم، ولاتبكي.

تنمو معك المكتبة..

صفحتك في الكتاب تلمع وتتنفس، فيكبر بين يديك الكتاب، يكبر..

فإذا سمعتَ للمكتبة صريراً، اذهب للمستشفى

و إذا سقط رفٌّ دون سبب

فانظر أمامك وقل: لم تقرع الجرس أيها الموت.. و نسيتُ اليومَ

بعد أن سَقَيتُ زَرعي

أن أُغلق الباب خلفي.

(10)

تضم مكتبة المورغانز بالإضافة لرسائل بخط شارلز ديكنز ومارك توين و فان غوخ- مخطوطات موسيقية لبيتهوفن وباخ و موزارت..

بيتهوفن، جرس الباب و أطفال سيارة الآيسكريم.. الأعمى الذي تحسّسَ أصوات العالم ونام في فراشها.. تمتلئ مخطوطاته بالبقع، مُتّسخة وضربات الحبر عليها قويّة وغير مبالية، كأنه يكتب في السطر بوصف السطر غِمدًا، ليست نوتات بقدر ما هي خطوات الهرب.. تهرب من ماذا يا بيتهوفن؟

مُباركةٌ تلك البيوت التي إذا قُرِع جرسها

ابتدأ عزفُك..

أمّا موزارت الحي، موزارت النبيل، يكتب بخفّةٍ كأنامل الندى، يؤرخ الورقة، يوقع دامغاً إسمه بشمعٍ أحمر، تلك الحُمرة التي ليس كمثلها شيء، بتلك اللغة البادئة بالدو، تسجيلٌ حسابيٌّ لصوت حركة الهواء و أصوات الغيب التي انسربت من بابٍ فتحه النجم الطارق.

الهاربُ من الحَفل قبلَ نهايته، غراتسيا

(1)

بُنيت العمائرُ لنذبلُ على نوافذها، في درجها الطويل و غرفها، لنموت دون أن يدري أحد، لا أحد، ولا حتى ذاك: و يشير بإصبعه للسقف. هل لي بفُسحةٍ قليلةٍ هنا أيها العالم، دون هدير محركات و دوران عجلات، دون أصوات أغانٍ منسلّة من السيارات و ازدحام عاملين و كادحين في ممرات المشاة.. فسحة أبتعدُ فيها عن مانهاتن لأرى الناس في بسيطةٍ ممتدة لا علوّ فيها سوى للغيم و المداخن؛ بيوت حجر تتآلف في تداعٍ يُرخي العين و يُذيبُ القلب، شوارع تتلامس أشجارها من الأعلى إذ فرقها الإسفلت على الجانبين، ولدٌ يدورُ الحي بكُرةٍ بين يديه يرميها على الأرض لترتد إليه.. أبحث عن شوارع سيئة الإنارة، رومانسية بالضرورة، عن ظهيرة بطيئة جداً تكفي للحُب و الحرب و السلام و التأليف و بناء منزل و إنجاب أحفاد، بطيئة لخَبز شمسٍ جديدة في فُرن الدكان الذي أجلس فيه الآن.

كان عشقاً منذ أول نظرة ما حدث بيني وبين دكان الكعك الإيطالي هذا بعيداً عن المدينة. خطفني من ثيابي كمن يجُرُ طفلاً ليعبُر به شارعاً سريعاً. و هو حقاً دُكّان، لا إسم يختزل الدفئ كهذا، لا إسم يُركِّبُ في مخيّلتك الباب و النوافذ و قطع الخشب و المنيو البدائي و منصات الكعك بكل ألوانه و غنجه و الطاولة الدائرية التي تسرقُ لي بعضاً منه كل دقيقة و تهديني إياه، و أنا أكتب عليها الآن، سواه: دُكّان. تحوم نساءُ الفُرن حولك، يحُمنَ فيما يشبه مدارات العشق، ليس البيعُ ما يشغلهن بقدر مشاركة المعجزات و الكرامات التي يُخرجنها من الفُرن. أمام هذا الكعك أطوي الفرح في داخلي كالملابس النظيفة، فيما الضغائن تنمو كنَبتٍ شيطانيٍ في أماكن أجهلها، لكنها تنمو.. يُخبَزُ الهدوء في الدكان، يعلقن نسوة الفرن على رقابهن أردية الطبخ السعيدة، ذكّرتني تلك الأردية بما كانت تحمله جدتي الجميلة زَهرة لخيّاط الحَي، كانت تحمل أقمشةً يتناهشها الياسمين و عبّادُ الشمس و أوراق الفتنة، تتشابك فيها مثلثات و دوائر و خطوط بألوان زاهية.. الخيّاطُ بدُكانه الصغير الحميم و نافذته الصغيرة المطلة على الشارع واضعاً مكنة خياطته بجانبها و يعمل، يدرُزُ، يضعُ بكرات الخيوط في أماكنها و يدرُز.. يشتَمُّ المدعوكَ من الريحان و الحنّة و دَيرم الشفاه الأحمر و البخور الأبدي، و يدرُزُ.. يعرفُ النسوة من أصواتهن، يُميّزهن من عباءات رؤوسهن و مشيتهن و طريقتهن في طوي الأقمشة.. كان سيّد المفاجآت، و كانت جدتي مع نساء الحي يتحدثن معه بلهجةٍ أكادُ أنا لا أفهمها، لكنه يفهم كل حرف و رقم و إشارة.. سَلوه، سَلو الأنهار التي خلفها وراءه في الهند أو بلاد البنغال، سائلوا أصابعه التي ثقبتها الإبرُ و الدبابيس، و انظروا إلى الدُنيا بنظارته الذهبية الواسعة التي مشت الأردية تحتها من أقمشة مستطيله إلى فساتين تُشعلُ الأعياد و الليالي و الأفراح.

أُدرك أحلامي بالقهوة، تركتُ شجرة البُن تنمو في ستاربكس و جيءَ لي بقهوةٍ هُنا تُناسبُ مزاج الكعك. لستُ مُتذوّقَ قهوةٍ لأمنع نفسي من بعض الروائح و المأكولات حفاظاً على لياقة العطر و الاستنشاق. لست متذوق

قهوة ولا نبيذ، لكن سحراً ماجناً أذبنه نسوة الفرن في هذا الكوب ولا أذكر ما حصل سوى أني أتخلّعُ من الفرح كأبوابٍ خشبيّة، و أني أُحب أشياءَ لم أُثقل على نفسي لأضعها في الكلام، أشياء خفيفة و نادرة كالُمغني إذا طرب و أعاد مقطع الأغنية بجُملٍ ناقصة و كلماتٍ مشطوفة.. أسرارُ الأب التي فور أن ينفثها في أذن ابنه، يكبُرُ الابنُ فجأة، يتفتحُ العالمُ من حوله كانفضاض الرسائل، يشعر بعضلات كتفيه تُفتل و يرتفعُ ذقنه قليلاً، ثم يبتعد الأب.. يبتعد عبدالسلام لأنه رجل و لأني رجل، لأن بين الرجال تحيّةً تشبه تحيّة السلاح أينما كانوا على المعمورة، لأنهم لو أغرقوا عيونهم في بعضهم البعض لبكوا، هناك ما ينتقلُ حارّاً بين الصدور من أب لإبن؛ كيف يكتب الرجل عن رجل؟ كيف؟.. و كمن يمُدُ يده في صندوق الألعاب المكسورة، أو كمن وجد صدفةً دفتر مذكراتٍ بقُفلٍ ذهبيٍ صغير سهل الفتح، قلّبتُ وجوه أصدقائي القدامى في ألبوم ذاكرتي.. مدفأة الصدى.. ذاكرة سامّة، سامّة جداً، لا أقرَبُها ولا أحب رائحتها.. لكنها تدعوني أحياناً فلا أمانع؛ كُنا ثلاثة و الموتُ كلبُنا، ثلاثة في بيروت، قَلَبناها على رأسها كالطاولة، بقينا ثلاثة إلا أن الكلب أكل ما بيننا و راح يرقبنا من سفحٍ بعيد.. كنت أُغالبُ شعوراً سيئاً و أشعر بالخوف يلفح وجهي.. كنت أحمل خوفي في آنية و أقول لهم اشربوا، ستذكرون هذا لاحقاً، سيقتلنا الكلب. لم يصدقوا، ولا أعرف الآن مالذي يذكرونه.. لو أن ذاك يحدث في الحقيقة! في الأفلام تظهر رسالتك بين يدي أحدهم و يعلو صوتك قارءاً الرسالة، أو يظهرُ وجهك فجأة في خيال أحدهم فيعلوا صوتك مكرراً نصيحةً قديمة أو تنبّؤٍ صادقٍ.. لو أن كل من حاولتَ أن تُعلّمه شيئاً في الحياة يلحقه صوتك قارءاً و مستبصراً.. لو.. لو.. (يتركك العالم؟ أغمض عينيك فقط ولن تراه.. ستُشفى بنبتةٍ نادرةٍ في الشرق اسمها الشّعر).

في غرفتي أنا لا أجلسُ كما أجلسُ الآن، أُضمامة لحمٍ و دمٍ و عظام.. في غرفتي أتبخّر، أخرج للعالم من مسام جُدرانه، من جدران البيت و الدكان و الكعبة و الفاتيكان، من جدران مانهاتن و الدمام، غرفتي كل مكان، و أنتم تقرعون الباب في الخارج. لكن، اختلف الأمرُ مع دُكّاني الأثير هذا، لم أكُن أستطيعُ شيئاً لخيالي المريض إذ يظن أن الدُكانَ مبنيٌّ من حُطام سُفُن، هذا تفسيره لروائح الجهات البعيدة فيه، لبُحّة البحر التي تصطفق لها النوافذ بلا ريح، و لزوّارٍ يُطلّون من النافذة دوماً، غرقى و مبلّلين بالموت و يضحكون!. أيها الغرقى، يجمعنا أننا الناجون يا صِحابي.. و خرجتُ من الدُكان.

(2)

كان جدي صادقاً و حقيقياً جداً إلى الدرجة التي لم أصدق أن أحداً غيره قد مات حقاً، كل الأموات يُمثّلون ليروا ما نفعل بعدهم، إلا جدي، هو ميّتٌ حقاً و مقابر المعمورة كلها ملكه وحده. من الأموات من أستطيع القول إنه بلا موهبة حقاً ولا يدري ما يفعل، يظهر اسمه في بعض الكتب و الأدعية و الصلوات، و ربما في الصور و السينما.. يمُرُ في خاطر مسكين أو في خيال أرملة.. يُصوّرُ نفسه في هالةٍ بيضاء و يَعِدُ بالسعادة و الخير.. لا يعرفُ كيف يختفي، مُمَثل فاشل و لم يتعلّم من الحياة شيئاً.

اخترقت مقبرةً كأني لص و الليلُ كله مداي و أرضي.. لي مزاجٌ مدبوغٌ جيداً للحديث عن الموت منذ بداية الأسبوع، منذ صحوتُ على صوت عصافير تتنادى و حفيف مبحوح، كأن هناك من حوّل المكان الذي نمتُ فيه إلى بقعة أخرى دون أن يُحرّكني.

عيوني حجرية لا ينبع منها نومٌ ولا دمع، ألمٌ كان يتفشى في عظامي و ماء الفرح غاضَ في وجهي رغم خضرة المقبرة و أناقتها و فنون النحت على أحجارها و رخامها.. الحقيقة أننا نحن من نزاحم المقابر لا هي.. هذا مكانها الطبيعي، القبر لا يغيّر مكانه ولا يطالب بأرضٍ جديدةٍ أو شريكٍ أفضل أو زيادة في راتب العمل، نحن من يفعل هذا.. نحن عصابة الصداع المربوطة على رأس الموت نفسه، وهو إذ يُدلي طُعمه في بحيرتنا، يضحك الماء من المشهد المكرر..لا بيت للموت سوانا، يُصلح بنا عتبته و يرتق شراشفه، نحن عالمه.. الموتُ الوحيدُ في الليل يُشعل إضاءة الباب الخارجي ليستدل عليه عابرٌ ما، إن كان هناك أحد.. حتى الموت لديه أمل في أن يجد صديقاً أو حبيبة يُدخلها من الباب الخلفي و يلهو و يضحك.

قبل خروجي من تهيامي في المقبرة، بين الرخام و الورد و العشب و أشجار الكستناء و السناجب، صلبني الله فيها، يداي مشدودتان إلى كوكبين و أصابع قدميّ تلامسان ماء العرش.. ما هذا الجمال؟ كيف يجيء طفلٌ إلى هنا ليضع لعبة دينصور صغيرة على شاهدة قبر أخيه؟ أو يضع طائرة ورقية؟ أو مروحة بلاستيكية ملونة على شكل سمكة يُديرها الهواء على مهل؟ من نحت هذه الشاهدة على شكل قلب؟ من التي وضعت حصاةً صغيرةً رُسمت عليها قلوب و حروف بألوان مدرسة أمام ذاك القبر؟ ثم من الذي هشّمَ صورة زوجين حُفرت على شاهدتهما؟ شَقَّ عليّ الذهول، شقّ عليّ الموت نفسه كيف لا يهجرنا ليجد له بيتاً بورودٍ أقل و أشجارٍ أقصر و قوس قزحٍ شاحب؟

(3)

خفيفٌ أيها الحب، خفيف.. على درّاجة هوائية، في بيجامة نوم.. خفيف أيها الحب.. في فطيرة الصباح، في الهواء الطالع من الساكسوفون، في ابتسامة النائم و وجه الغافل و نفضة المفاجأة الغريبة لمن افترش السرير.. خفيفٌ أيها الحب.. يدي على قبضة بابك و لم أخرج، تتبعتُ خُطى أشجارك خلف البيت و عدتُ، وضعتُ أعشابك في ماء ساخنٍ و غطتني غلالة الشهوة.. تروق لي أشياء قليلة منها أنت و هِلالُ العانة التي تفقدني أسبابي.. لا تختفي، خفيف أيها الحب، خفيف..

"أنا لا أدري حتى منذ متى رحلَت. كأني أستيقظ على الفراش و هي ليست بجانبي لأنها ذهبت الى الحمّام أو شيءٍ كهذا، لكن بطريقة ما أعرف.. أعرف أنها لن تعود إلى السرير. لو أني فقط أمد يدي لألمس جانبها من الفراش، لوجدته بارداً. لكني لا أستطيع. أعرف أنني لن أستعيدها.. لا أريد أن أستيقظ كل صباح و أفكّر أنها لا تزال هنا. أكذب إذا قلت أنني لا أعرف كم من الوقت أمضيته وحيداً. كيف سأُشفى إذاً، كيف سأُشفى، إذا لم أكن أشعر بالوقت أصلاً؟"

قفص هانيبال

(1)

- أهلاً فرانكنشتاين، إجلس من فضلك.

+ ...

- قُل لي: هل أنت مؤمن؟

+ لم يعُد بإمكاني الحديثُ مع الله قبل النوم، كالعادة.

- هل أنت مؤمن؟

+ لا. و إذا كنت تسجل هذه المحادثة، فلن يظهر صوتي في الشريط، كما أنني لا أرى وجهي في المرايا.

- قيل إنك بروميثيوس الحديث، لا يبدو عليك هذا؛ تعرجات الجلد حول عينيك تستضيف العتمة.. لم ترفع طفلاً يوماً، هذا ما تقوله رعشة يدك، وثيابك لم تغيرها منذ علقت بها رائحةٌ ما (يُغمض و يستنشقُ الهواء بعمق).

+ ذلك لأنني عكستُ اتجاه المطر عندما فتحتُ الباب لتدخل الشوارعُ البيت. لم أنتبه إلا و عيني تمتلئان بالدم، امتلأ رأسي وقميصي، امتلأت الغرفة، امتلأ العالم. وأنت، ماذا فعلتَ لتسرق -بخفّة النشّالِ- طمأنينة الناس، هكذا؟

- كنتُ أصنعُ كمائن واضحة لهم، واضحة كرأس الشمس مرفوعاً على عصا.. مثلاً: أضيء إشارة المرور الخضراء، أسمحُ لفاتنةٍ أن ترمي عقب سيجارتها الملثوم بحُمرتها ليسقط على قدم رجُلٍ حزينٍ، وطفلٌ يلهو من نافذة غرفته.. تصرخ المرأة، يجفل الطفل، والرجل مدهوساً تحت عربة. لكن لم يكن الكمينُ هنا، هو في الهواتف الثلاثة التي ترن: حقيبة المرأة، جَيبُ الرجل و صالة الشقة، في صوتي الحاد الذي يجيب عليها كلها في وقتٍ واحدٍ: أترك رسالةً للعدم.

+ تأخذ من الحياة -غالياً- ثمن قبحها، كأنك عازف تشيلو عجوز ليس له في الحفل سوى أن يضرب وتراً واحداً لثانيةٍ واحدة في معزوفةٍ سريعة. كأن هذا كله ليس من صنيع يديك وعينيك.

- أحاول الاستمتاع، لا أكثر (عينه اليسرى ترمشُ، نصف مغمضة ويبتسم).

+ تستمتع فقط بالتصفيق للأشياء التي لا تستطيعها؛ تنتفض لرؤية طفلةٍ تمسحُ شعر دُميتها، لا تنامُ لأنك لم تُفسد حلبة الرقص في فيلم (إنهم يقتلون الخيول، أليس كذلك؟).. ترسمُ على عُلَب المالبورو أشكالاً كالتّعب الخام لأن حوصلة الطائر ليست من صفاتك.. ضرباتُ قلبك هادئةٌ دوماً، و تسعى لقلب الأميرة.

- برافو، فرانكنشتاين.. هذه تذكرتين لدخول الحياة، تفضل.

+ أخرجني من هذه الحكاية (يصر بأسنانه).

- لو مددتُ لك يدي، هل تضعُ فيها مفاتيح بيتك؟

+ بيتي لا سقف له، تنزلُ النجومُ فيه كُل صباحٍ، تُعد لي الحليب و تُحمّصُ الرغيف الأسمر.. ولا علاقة لي ببيتك الأسود، بناهُ لك البكاءُ عندما خلقته ليومين على هيئة رجل، لم تكن كريماً حتى في هذا، لو أنك لم تأخذ من وقته لطاف بنا وعلّمنا وبخّرنا و وسّدَ رؤوسنا و واسانا.

- كم امرأة يخطر على بالك ان تعاشرها كل يوم؟ أو كم رجل؟

+ ...

- انظر لعيني: ماذا ترى؟

+ لاشيء.. لاشيء حقاً.. ربما جزيرةٌ بعيدةٌ تُربّي أحلام المغامرين، تفتل قلوباً دعكها ليلُ الأسئلة.

- (يقهقه، و أجراس الصدى تحمل الصوت بعيداً كدوائر في بحيرة من هواء)

+ (يُفكّر و كفّه تنز عرقاً بارداً)

- مأساتي أنني لستُ معروفاً في الجوار، إذ لا أحد جواري. أرضكم هذه ممرٌّ ضيّقٌ و موحشٌ في الكون، تضيؤونه بقناديل لا أحبها أحياناً؛ الحُب الأوّل، خلود الأب، الشِّعر، و غيره.. لهذا أفسد تُربتكم كلما استوحشتُ مكاني إذ لم أسمع سوى صرير عرشي هذا.. الصريرُ أبو الأصوات كلها، هل تعرف ذلك؟

+ لا.. وبدأتُ أنفد.

- لم أكن أعلمُ بوجودكم في الحقيقة، حتى لمستُ ذبذبةً عابرة لم أخلقها، أول ذبذبة شقّت الفضاء بعيونٍ واسعةٍ فاستأنس وحشُ الكون الأسود، كان الفضاءُ فضاءً..

+ كيف لك إذاً أن تُملي عليّ عجزك وأنت تخافُ شجر الرُمّان الطالع من صدري؟ خُذ كيس العقاقير هذا (يمُدُ يده).

- (ضارباً اليد الممدودة): ماهي أسوأ ذكرى لك في طفولتك؟

+ (يتبخّرُ العالمُ من حوله كالمياه): إن كانت الطفولة تُقاس بالتجربة، فلقد كنت طفلاً حتى دخولي الجامعة.. بدأتُ بسماع دقات ساعاتٍ غريبةٍ، كانت مواقيتَ للتو تصل. ثياب سوداء تخرج لي من المجارير، وغيمة تشبه وجهاً ما تصطفيني بظلها الخفيف.. (يسمعُ دقات ساعات غريبة).

- (مُنصتاً كما لو أنه يتذكّر أو ينام..)

+ كنتُ رقيقاً كصفحة ماء، مليئاً بأسباب الجمال مثل تسريحة عروس أو علبة ماكياجٍ باهظة.. وعلى مهلي، أكتب وأتحدث كمن ينتخب نبيذاً لليلة حب.. لكن ذئباً نسي أن يعوي تلك الليلة، أنا أحفظهم واحداً واحداً، أعرف مخابئهم ومداخل وديانهم، أعرف عيونهم المحمرة من الحزن والفتك.. أعرفها لأنها تشبه عينيّ تماماً.

- ثُمّ قتلتَ المرايا..

+ ليس من السّهل أن تكون إبناً (يرتعش)..

- ...

+ ذهبتُ لزيارة جدي في المستشفى، ورأيته على سرير أبيض في كيس مغلق.. دفعته بيديّ هاتين إلى ثلاجة الموتى. كنّا نأتيه باحثين عن العدالة والحب، يهبُ بيدين عاريتين ليجعل صورة العائلة مكتملة. آه..

_ ...

+ تُظهر بعض الشفقة؟ هل تظن أنك تستطيع استدراجي بهذه الابتسامة السخيفة؟

- ثم ماذا حدث؟

+ لماذا عليّ أن أعامل الناس بطريقةٍ أقلُّ دكّاً من مطرقة الحياة على أصابعي؟ لماذا؟ (يبكي)

- أين تخبئ عن الناس وحوشك؟

+ في الكتب (ينهار).

- هل تعبت؟

+ دعني أنامُ الآن.

- حسناً، لا تنس أن تُصلح تلك الساعات الغريبة: تك تاك.. تك تاك.. تك تاك..

أسماؤنا وحدها أثاث المقابر

(أ)

نحتاج للمُجرمين.. للقلب الثّلجة، لغُرف نومهم المُظلمة أبداً لتحميض الكوابيس.. لصورهم الأمامية و الجانبية في خزانات الشرطة و ملفّات الإنتربول.. نحتاج للمُجرمين، لأعينهم الصفراء الباردة، لخيالهم الذي يصوّر لهم أن يتوحّشوا فلا يتردّدون.. فلا شك أنّ الجرّاح الأوّل كان رأس السلالة ليضع مشرطه على صدرك أو إبرةً ينخُزُ بها بؤبؤ عينك، كان فامباير ترافقه دائماً موسيقى رُعب و خطر عالية.. مؤثرات صوتية تولد معه فيعتاد على مَكَنَة الأدرينالين تضرب بكراتها و اسطواناتها في قلبه.. كل ما يتعلّق بالموت ابتكره المجرمون، منذ التحنيط الأوّل و حتى آلات الحفاظ على الحياة، محاليل تجفيف الخلايا و كابلات الصّعق الرحيمة.. لم يعد الموت ورقة جوكر، و لا قبرَ يستطيع أن يضُم هذا الجسد.. تستطيع البدء بالعد التنازلي إن شئت حتى يوم القيامة، فقصص البعث عند الشعوب كثيرة، و أجملها المُعاد صياغتها بكاميرا أصفى و مسرحٍ أوسع و صوتٍ أجش.. كأن تقول لك مخطوطة الموت، مخطوطة الفراعنة المسطرة على ورق بُردي معروض في متحف المتروبوليتان أن مصيرك للتحنيط، أن سبعين تعويذةً و لعنةً و أنشودة ستُنقش على جسدك و كفنك، أن أكواماً من الأقمشة المكوّرة المنقوعة في محاليل كيميائية ستسد تجويف قلبك و دماغك بعد اقتلاع الأول من جذوره و سحب الثاني مسلسلاً من أنفك..أن تُدعك بالكافور ليتسنى لأبواب الغيب أن تتعرّف على سحنتك و تبتكر لك حياة بعد موتك. و إذا أصخت السّمع مليّاً، ستعرف صوتاً جديداً لمُجرمٌ ألماني يقول لك أن يوم القيامة هو يوم انفجار الشمس بعد 5000 مليون سنة.. سيكون لون العالم أحمر، و أنه سيترك باب متحفه هذا مفتوحاً لتخرج الجثث إن شاءت لتسير في الشوارع من جديد.. أما أنا، أنا المسكين الذي رأى عشرين بوقاً مُعلّقاً في المتروبوليتان، لم أفهم ماذا سيجري لنيويورك لو أنني كسرت الزجاج و بيدٍ داميةٍ سحبتُ بوقاً و نفخت فيه، ماذا سيجري؟ هل سأجد أرواح العالم مكوّمةً في السقف؟ أُحدّثُ جدّي؟ أفجّر الشمس؟ المؤكدُ أنّني أستطيع البدء بالعد التنازلي.

(ب)

"جسمك قيثارة روحك.. هو لك لتعزف به ألحاناً جميلة، أو أصواتاً نشاز.".. يجيئ الشعر ليلصقني بالجدار و يشير بسبّابته في وجهي: إهدأ. حسناً يا جبران، في معرض الجثث هذا (Pulse Exhibit - Discovery) لِمَ عسايَ أتعجّل و للمتبرعين بأجسادهم لتُعرض هنا كل هذا الجَلَد؟ هل كنت تدري أن سطراً من شعرك سيستقبل الزوّار في متحف المُجرم الألماني ليهدؤوا ولا يفقدون عقولهم؟.. قام طبيب التشريح الألماني بابتكار طريقة جديدة لتحنيط الأجساد.. تثبيت أجزائها الداخلية كما هي بألوانها و تركيبها و إبراز أدق تفاصيل تفاصيلها، علّقها في الشهقة، في خطوة النزول للقبر، و كسّد سوق حائكي الأكفان و مباخر الكهانة.. تفنّن في ابتكار قشعريرة جديدة للأحياء. مكّنت طريقة التحنيط الجديدة هذا المجرم الألماني من أن يفعل بالجسد ما يريده و يبقى مؤتلقاً، ناعماً و بارز اللون.. يستطيع أن يُخرج الدماغ و يضعه فوق الرأس، و أن يجعل الظهر محنياً

للأمام في حين أن العمود الفقري ينفر من الخلف.. يستطيع أن يجعلك ترى رِأة محمية بقفص صدري، و أختها عارية.. أن ترى الحجرات الأربع لقلبٍ حقيقي، الخندق القاسم للدماغ، كبداً أبيضاً من الخمر، إلتحام العضلات بالعظام كما تلُفُ جداتنا بعناية قماشة على قنينة دهن عودٍ باذخ. تسمح طريقة التحنيط هذه للجسد أيضاً بأن يتجمّد مثل نحلةٍ في حجر كهرمان.. فيجيء المجرم بمنشار و يأخذ مقاطع عرضية و طولية للجسد كاملاً أو لبعض أجزاءه، ثم تُعرض كلوائح لرؤية حميميّة تراكم أعضاء الإنسان الداخلية بجانب بعضها البعض.

.. و بدأت القصة منذ عشر سنوات بعد نجاحه في اعتماد طريقته الجديده للتحنيط أكاديمياً، أقام مشروعاً لاستقبال المتبرعين بأجسادهم بعد وفاتهم لأغراض تعليمية، و جاءه المتبرعون بأصدق ما يمكن للإنسان أن يُقدم عليه.. لكن العُقدة لا تكمن في الأموات، بل في الأحياء.. تحنيط أجساد المتبرعين و عرضها على الطلاب و الدارسين شيء مقبول، لكن أن تعرضها على المجتمع! أن تُعطي السائر في الشارع الإمكانية لرؤية أجساد بشرية مشرحة، هنا بدأت الحرب عليه في ألمانيا.. مظاهرات في الشوارع، محاورات ممثلي أكبر الكنائس له: هل أنت الخالق؟.. وقوف مؤيدي الكنيسه من السياسيين و الصحف ضده، و لم يعبأ بشيء سوى بغريزة الإجرام الحميدة في دمه.

استعان بفلاسفة الجامعات ليضعوا مسألة الكرامة الإنسانية و معناها على طاولة النقاش، بأطباء التشريح ليحكوا تاريخهم الممتد لمئات السنين، تاريخ آبائهم المجرمين الذين أصدروا فجأة كتباً تشريحية لجسد الإنسان بعد أن يغيبوا و يختفوا و يُشَك في موتهم لسنين طويلة.. هي نفسها الكتب التي تراكمت و صارت علماً، علمُ التشريح الذي ابتكر فكرة الروح لينجو بعبثه بالجثث على يد بلاتو، تلميذ أرسطو قبل 25 قرناً، أمّا العظيم ليوناردو دافنشي، فكان يعتلي أسوار المقابر، يسرقُ جُثّةً و يعدو بفريسته لجُحره ويسهر الليالي معها، نديمُ الموت سرق 11 جُثّة.

ألجَمَهُم الألماني بالتاريخ، بالفراعنة و مُدُن الأموات التي بنوها و صوّبوا فوهّتها للخلود، بطرق مختلف حضارات أعالي الجبال و السهول و السواحل في الدفن و الحرق و التغريق.. بالإسكندر المقدوني الذي أغرقه أصدقاؤه في تابوت رُخامي مليئ بالعسل عائدين به ميتاً لأرضه، فقد كانت طُرُق حفظ الأموات المقدسين شبيهة بطرق حفظ الطعام وتخزينه. ألجمهم أيضاً بالخوف، بمعتقدات كهانية قديمة ألزمتهم تعريّة الميّت قبل إخفائه تحت الأرض و تغطية وجهه، بجهود العرب التشريحية في بيت الحكمة البغدادي قبل هجوم المغول.. في وقتٍ كانت الكنيسة تُبيح لعلماء التشريح الحصول على جثث المصابين بالطاعون و المُعدمين بالشنق، فتُجرى عمليات التشريح يُرافقها لحضور أعظم فناني الرسم و التشكيل ليرسموا ما يروه بدقة في مسارح مفتوحة للعامة، فهشّ لها الناس هشّ العصافير لماءٍ نادرٍ و مكنون.. فكان أَلَقُ المبضع المُجلجل، و كانت ريشة الفنان الحزينة.

شرّح الألمانيُّ التاريخ كما شرّح أجساد المتبرعين.. جمع كل الأدلة الكنسية المبيحة للفرد المتدين بأن يتبرّك ببقايا عظام و أجساد الأموات.. أتى بصور الكنيسة التي يُزيّنها أكثر من 400 هيكل بشري و قال: ما هذا؟.. أراهم

شموع القراصنة المسيحيين إخوة الذهب وقنّاصي الكنوز الذين يعتقدون أن الشمعة يجب أن تُرفع بإصبع أحد الأموات لكي يدلّهم على الكنوز من عالمه الكاشف لكل شيء.. بأعظم قادة الحروب الصليبية الذين سلخوا لحم أمواتهم و أرسلوا عظامهم فقط مطبوخةً لأهاليهم لكي لا يُثقلوا القافلة. أدار لهم أخيراً فيديو تشييع لينين و الخميني و عرض أجسادهم للعامة لأيام طويلة بعد وفاتهم: كل الحضارات ترفع للتحنيط و التشريح مهابةً و جلالاً، إن الموت لا يعرف عظيماً، أن الأجساد كلها سواسية و أن الإنسان بموته لا يعيش إلا في ذاكرة مؤقته سيجدها سيّافُ النسيان، و ليس له سوى أن نحقق له الأمنيات الأخيرة، أن القبر نكتة!. طلب منهم أن يكفّوا عن الموت: كفّوا عنه فلطالما عاش بيننا غريباً لا يُعرف وجهه ولا يُعرف له لسان.. و بنظرة الذي قال للموت سأُنصفُك، فتح المعرض للناس.. و أنا بدوري، لم ألتفت حتى للمطر.. قطرةٌ واحدة قد تُثقل جناح الطير.. قطعتُ التذكرة و دلفت لأرى فعل هذا المجرم، فذُهلت.

(ج)

إذاً، هذه جُثث حقيقية محنطة لأُناسٍ حقيقيين ماتوا.. واو!! ماهي أسماؤهم؟ أعمارهم؟ من أين جاؤوا؟ لا أحد يعرف.. أضحكتني العجوز التي أشارت إلى دماغٍ مُجمّد معروض في مكعّب زجاجي و قالت لزوجها: منذ متى تعرض دماغك هنا و تعود للبيت بدونه؟ ضحك الزوج و دفع كرسي العجلات الذي تجلس عليه العجوز إلى مكانٍ آخر.

يأخذك المعرض في جولة حقيقية لتفهم كيف يعمل الجسد بكل أجهزته، ولا مراجيح في الغيب، ستجيء أعينك و تذهب على شريان قلبٍ مُصابٍ بجلطة لترى وجهها الأسود أمامك، هي المخيفة حقاً لا الأجساد، سترى تفحّم رئة من التدخين كأنها كسّارة الكعبة، لهذا خُيّل لي هناك أن الإنسان كُلّما أخطأ صار جسده حجراً أسوداً. تسير لترى الأجساد تباعاً، أكثرها إعجاباً ودقة لعلماء التشريح أنفسهم هو جسد المُفكّر.. أُجلس هذا الجسد على كُرسي و وُضعت أحجار الشطرنج أمامه، و قام المُجرم الألماني بتفصيل عروق الصدغ و طريقها المتصل بالدماغ المشقوق بدوره إلى نصفين و البارزه عروقه المتعددة الألوان، مُشيراً إلى أقدم جزء من الدماغ في عملية التطور، وهو معبر الحياة، الجزء الرابط بين المخ و أعلى الرقبة و المسؤول عن الوظائف الأساسية للحياة (التنفس، النبض، تنبيه الاستيقاظ من النوم..).. حتى نظرة العين قام بتفصيلها و تفصيل عضلات الإصبع المحرّكة. أمّا الجسد المبهر الآخر فهو للفارس.. الفارس الذي يعتلي حصاناً محنطاً بالكامل، حصاناً يقف على قوائمه الخلفية و الفارس يحمل في يده اليمنى قلبه و في يساره دماغه!!. أما الشجرة، الشجرة المعلقة بخلفية سوداء فلم تكن جسداً، كان الحبل الشوكي متصلاً ب31 عرقاً رئيسياً مشكلاً الجهاز العصبي، مشبوكةً و مُخاطة و معقودة ومتسلسلة ومتموجة و متنافرة.. هذا الجهاز الدمث الذي يعمل بنبضات كهربائية لا تكفي لإشعال لمبة السقف، أشعل الأرض و ربها.

بعد رصف الأجساد في أوضاع طبيعية و غير موحشة، و غالباً في أوضاع رياضية، أجساد تلعب كرة القدم و السلة و الجمباز و السباحة و المشي و الجري و غيرها.. تجيء أجساد رُكّبت لتُمثّل أفكاراً فلسفية أو خرافات أو

تجسيد للوحات مشهورة.. هناك الجسد الذي يحمل قلبه بين يديه ناظراً إلى ربه.. و هناك الجسد الذي يرفع جلده المسلوخ بيمينه الى الأعلى، و الجسد النازل إلى قبره بنظرة حزينة..جسدٌ رُكّب على غرار أحد تماثيل مايكل آنجلو.. أما جسد الأدراج، فصُمّم ليُطابق لوحة سلفادور دالي: رجل الأدراج.

ينتهي المعرض بالسر الوادع الذي ننساه دائماً: كيف جئنا؟. ينتهي بزجاجات صغيرة في كل واحدة منها جنين في مرحلة معينة من عمره.. اسبوع، اسبوعين، شهر، شهر ونصف.. حتى جسد الأم، امرأة مستلقية و بطنها مشقوق ليظهر جنينها مختبأً في الرحم.. يدّعي الألماني أن هذا الجسد المحنّط لا عُمرَ له ولا وقت مرئي لذبول زهرته.. و لم أكن أريد أن أصرخ.. لا.. أملي يكمن في أن العيون التي رأيتها ليست حقيقيّة.

سُبَح تُغرغر بالضوء

(1)

أَكتب الآن مُنصتًا إلى مقطوعة شوبان الحالمة، أسترخي في الندم: أمام بِركته متخفّفاً من الثياب و أُقلّبُ كتابَ أيّامي.. أُجاوِرُ الغُرفَ التي نِمتُ فيها لليلةٍ واحدة و وعدتها بتكرار الزيارة، أُقلّبُ أسرّتها وأعتذر.. رغبتي في لعَب دَور البطل الذي يعود بعد سنين تعُضُّ أحشائي.. يدبّ العالمُ في قلبي، تبدأ في جسدي اختلاجاتٌ تسيرُ بهدوء، تُعيدُ وَصْلَ نهايات أعصابي التالفة بخلايا جلدي، تغرسها شعرةً شعرة، و أسترخي في الندم، تأخُذُ السُّمرةُ جلدي، وهذه علامةُ التقدّم في العُمر، كَقِلّة النّوم، و نَوبات التذكُّر، و ريبورتاج الحِكمَة.

منذ قليلٍ فتَح جدي الثلاجة، أخذَ علبة ماءٍ و انصرف. أعرفُ أنّه كان يُحبُ من فترة إلى أخرى، كما كان يدخّن فقط في أيّام العيد، أن يستمع إلى غناء داخل حسن. بدأ داخل الغناء كما تبدأ النبوّة، في الرّعي و التهويم في الحقول.. واستمرّ معه حتى انتقل الى إصلاح الزوارق و نقل المسافرين بها. كان يلعبُ بسُبحته و يضربها بكفّيه و يكُرُّها ليذكُر الإيقاع و يخطو في اللحن صحيحاً و يَقِظ الموّال.. اتّخذ سُبحَته جزءاً من الآلات الموسيقية التي ترافقه. و إن كان هذا هو الحال، فقد عرفتُ تماماً مالذي كانت تعنيه سُبحة جدي الخضراء؛ حُبّه، مِزاجه، رَبّه و دولابُ أيّامه، كان يفركها جيداً و يشمها ولا أدري ما المكنونُ فيها سوى التماعاتٍ أراها في الخرز و في رقرقة عينيه. عندما وجدتُه ميتاً في غرفة المستشفى، فتّشتُ فوراً كفّيه لأعرف من سُبحته مالذي جرى في غيابي، لم أجدها، فركتُ عينيّ و حَدَجتُ السّقف: لنتشارك الحكاية مرّة واحدة فقط، لِمَ تسرقها منّي؟. رفعتُ كُلّ ما يُمكن أن يجثم على أرض الغرفه، يَئستُ و جلستُ على كُرسيٍّ بالقرب منه. في قرآنه الشخصي، كان يضعُ لي وحدي صورةً ليحفظني الكلام، ليُبعد عني جنون السائقين و يُكملَ إجابتي في ورق الامتحان، ربما استوحشَت صورتي في ذلك الوقت و سمعت السُّبحةُ عواءها، رُبما أرسلَت إشارةً تشبه إشارة مورس لإنقاذ السفن، وها هي في يدي، خرَز مُطفأ و يرفض البوح.

(2)

أغمضتُ عينيّ فوراً و دخلتُ إلى صدري.. وجهاً لوجهٍ أمام قلبي: كن طفلاً مطيعاً و إلا حبستُك هنا، ستسيرُ بجانبي إذا صرتَ لطيفاً. فتحتُ عينيّ في متحف روبن، في قاعة السُّبَح، في غُرفةٍ سرّيةٍ في بيتي لم أدرِ بوجودها. أرتعشُ، كأنني لم أرَ سُبحاً في حياتي كلها، إذ مَن المجنون الذي يصنعُ سُبحةً من عِظام ثُعبانٍ صغير و يُسبّحُ على عموده الفقري؟ مَن يأخذ قطعاً من عِظام أستاذه الذي يُحب و يصنعُ منها خرزاً؟ أو من يَطحنُ بتلات الورد مازجاً إيّاها بخشب الصندل ليضوع العطرُ إذا فرك سبحته بيدين باردتين؟ سُبحةُ اللؤلؤ يا روبن مكانها الخليج، أمام بيتنا تماماً، و سُبحةُ بذور الأشجار سرقتها من أبها، و ماذا عن الغرانيت و الذهب و الفضة و الفيروز و ما لا أعرف؟ يمكنُ استخدام كل شيء لصنع السبحة؛ القماش و الخشب و الأصداف و المعدن و

العظام و لحاء الشجر و الزهر و الرخام و صخور الجبال.. مُذهلٌ ما تحسّسته يدي، مسحورةٌ تلك النقوش على الخرز، من الصين إلى بلاد التبت و الهند و منغوليا و حتى تركيا و أوروبا.. جدران من السُّبح التي حدثتني بلغاتٍ لا أفهمها، بألوانٍ كثيرة، كثيرةٍ جداً على حدقتي الفقيرة.

بدت لي بعض السُّبح كأنها شكلٌ بشريٌّ مخلوقٌ بمادّةٍ أخرى، كأن الإنسان يصنعُ سُبحته على هيئته ليُقلّبِ نفسه بين كفّيه، سُبحةٌ ترتاحُ على إبهام الكف إذا غزاها النوم، و تشيطُ و يصطكُ خرزها عند الغضب. رأسُ المسابيح التي أحببتها يكون كبيراً مثل رأس إنسان، حجرٌ أو معدنٌ أو بذرة، تتدلّى منه خيوطٌ متعددة الألوان و الأطوال غالبًا، و أسمَيتُ ذلك جديلة الكائن.. على جانبي الرأس تنعقدُ قِطعٌ من أرديةٍ ما (بُردة سعاد مثلًا)، تتدلى بجانبها خيوطٌ قصيرةٌ دقيقة و ملوّنة تحملُ قطعاً فضيّة مُطعّمة بأحجارٍ كريمة صغيرة مما يجعلها مقوّسة على شكل كتفٍ وذراع، و تدور السبحةُ بعد ذلك لتشكل الجسد. عذّبتني تلك السبح التي تبدو على شكل بَشَر؛ هذه يتدلّى رأسها على كتفها كأنها نائمة، و هذه تمُدُ ذراعيها للأسفل لترفع شيئاً سقط على الأرض، وتلك تنظُرُ للأعلى بأكتافٍ مسترخية في حالة من العتاب و المناجاة.. إنها هنا بأرواحها، بعضها يرقُصُ لفرط الزركشة الغجرية، و بعضها يرفع إصبعه منذراً بالخراب.. لو كان للألوان منزلٌ تعودُ إليه عندما يهُشّها الليل من شوارعه، فهو هنا، صندوق السُّبَح المبطّن بالقماش و القطن، هنا أغطيتها و هنا تُلاعبُ بعضها حتى تنام.

(3)

السُّبح المنغولية لها رأسٌ أشعثُ الشعر، أشعث لدرجة أن يكون أكبر من جسد السبحة نفسه. اشتعالٌ و دفءٌ يشعُره المُمسكُ بها، و هي هزيلةُ القوام، كأن المرض يأكل جسدها حُبّاً إذ تفكّر بالمجاهيل و اكتناه الكون.

يغلبُ على سُبح الصين و اليابان استخدامُ البذور و الأحجار التي على شكل أقراص أو صحون، في ترميزٍ لصحن الشمس، بعكس كور الخرز الممثّلة للكواكب في الثقافات الأخرى. يُقلّبون المجرّة بكفٍّ واحدة، يسيرون في المدارات اللانهائية المعتمة. هكذا آمنوا بأن لكل نوعٍ من الأحجار و المعادن و البذور فائدة و استخداماً؛ سبحةُ الغضب تكونُ سوداء الخرز و يتدلى منها فأسٌ صغير بحجم الأُنملة، يجب ألّا تُرى هذه السبحة أو تُجَسّ من قبل أحد غير صاحبها، و عليها ألّا تُلامس الأرض نهائياً و تُحفظ في مكانٍ عالٍ. سُبحةُ الحُب الزهريّة تجلبُ حُلو الكلام و بريق العين، سُبحةُ البحر للتأمُّل و الاسترخاء، و السبحةُ الحمراء لتركيز الطاقة في الجسد و زيادة الكارما للوصول للنيرفانا.

وحيدةً على رأس جبلٍ تنتظرُ الطوفان، سُبَحُ بلاد التيبت البوذية. في أطرافها أجراسٌ صغيرةٌ جداً تُصدر أصواتاً عذبةً في التقليب، في القلق و الندم و الانتظار، إذ تتعدّد أطوال سبحاتهم من دائرة الرسغ إلى دوائر هائلة تُلبسُ حول الرقبة و تزحفُ على الأرض. هم من آمنوا أن لعظام أساتذتهم الروحانيون قدرات خارقة، و إذ يستخدمونها خرزاً، فإنها تساعدهم على وضعٍ شِراكٍ للحكمة لتجيء كما يجيئ النوم، هادئاً و منقاداً و سهلَ

الطّباع. و هم أيضاً من صنعوا من النباتات الطبيّة سُبحاً خضراء نضرة، تعينهم في وحدتهم الجبلية، وحدة النسور، وحدة الحدقة في العين الحزينة.

سُبَح الهندوس لا رأس لها، تدورُ بسلاسة في تعبيرٍ عن تناسخ الأرواح و ذوبانها، إذ يظنون أن السبحات تستطيعُ التخاطُر، مَن يُمسك في يده سُبحةً فهو في اتصالٍ مع كُل مُمسكي السُّبَح في تلك اللحظة، يرى ما يرون، يشُمُّ ما يشمون و يقومون و يقعدون سويّاً. يكثُرُ عل خرزها نقوش الصلوات، تتحسّسُ الأصابعُ و تمُدُ الأعناقُ أناشيدها واحداً تلو الآخر كما تقترحه السبحة.

سُبح الأديان السماوية تتشابه في بساطتها، لونها الواحد و الرأسُ الطولي، أو لأقُل العُنُق الذي بلا رأس ولا أكتاف، إستسلامٌ محضٌ و سَلامٌ هادئ، حُنجرةُ الحمامة. أشتهرت المسيحية بصُنع السُّبح من الزهور المدعوكة (روزماري)، و اشتهرت بعض فِرَق الإسلام بإيمانها بأن بعض الأحجار الكريمة هي بيوتٌ للجن، بعضها يستدرج الأحلام من مخابئها الجوفيّة و بعضها يستطيع إيقاف الدم في الجرح الراعف.

السبحةُ الواحدة فريدةٌ فرادة الوجه، إذ تُعتبر ذوقاً فردياً و تصميماً شخصياً بحتاً و تدُلُّ على صاحبها كالقصيدة. هكذا لم أخرج من متحف روبن، فتحتُ دولاب السُبح، استلقيتُ هناك و أغلقتُ على نفسي.

(4)

أكثر من ثُلثي البشر الأحياء الآن يستخدمون السبحة. و أوّلُ ذِكرٍ لها في تاريخنا المعلوم هو في بُرديّ الفراعنة لإحصاء أنفاس الرحمة، وكان ذلك أول استخدامٍ روحانيٍّ لها، و منها انطلقت لكافّة الحضارات. قبلها، كان الصيّادُ يصنعُ من أسنان طرائده سُبحةً ليسهُل عليه صَيدُ أشباهها.. و قد تكون السبحة أول أداة إحصائية صنعها الإنسان على الإطلاق، أُمُّ الرياضيات قبل ابتكار الأرقام.

(5)

كان لجدتي زهرة غرفة لصناعة السبحات، تجلسُ فاردةً رجلها، طرف الخيط معقود بإبهام قدمها، تشده بإصبعها و تُرسِلُ الخرز واحدةً واحدة لتنزلق على الخيط.. سأصنع سُبحتي يوماً، سيكون خرزها مرايا مكوّرة، تفصلها أحجارٌ كريمةٌ بنفسجية.. سأكتب على الخرز عناوين لنصوصٍ أحبها. سأكتب الكثير، الخيطُ الناظمُ أسود، الرأسُ أشعث الزُّرقة، و الكتفان سوداوين مُطعّمينٍ بحبّاتٍ صغيرةٍ من الجاد و الكهرمان المُمسك بالنّحل في قلبه.

اصنع سُبحتك الآن،

ثُمّ لا تُريها أحدًا.

البرد خيّاط الله

(1)

ينالُ منك البرد، يُقبّلُ أصابعك، يُخرج لك من جيبه أمراضَه كالحلوى، لا تعرفُ كيف تُغلقُ أصابعَ كفّه، ترُدُّها و تشكر لطفه.. بعد كل السنين التي أرخيتها واحدةً واحدة في مزهريّة عينيك، ينالُ منك البرد، لا تدّخرُ له ثياباً ولا تُصلحُ أكواب الزنجبيل، حاسراً تحت المطر، وهذه من علامات الطفولة. وما إن يحملُ إليك الشتاءُ ثيابه، ما إن يحيكُ من ستائر غُرفتك القديمة أسمالاً لأحلامك و كومبارسها، حتى تقوم بقطع تذكرةٍ نحو الأعراف، تلك النجمة التي بين الجنة و النار، يقطنها من تساوى وزنُ حسناته بثقل سيئاته.. مالذي تفعله كُلّ عامٍ في تلك المحطّة الدائمة؟ يرتاحُ الملائكةُ فيها قليلاً حيثُ يمكنهم رؤية الشياطين أيضاً في حيادٍ من صراعهم الأزلي.. يحتسون القهوة؟ ربما، يتصافحون، ثُمّ يمضي كُلٌّ إلى عمله، إلّا هذا.. هذا الذي تتسَحَّبُ أطرافه حولك، تنحسرُ أنفاسه في البرد عن بُخارٍ قليلٍ، و يحدجك بعينين نتّف رمشيهما الندم.. ذلك لأنه لم يمُت كاملاً، لأنه لم يرتكب الفاصلة، لم يُزِح الطوبةَ عن ما تحتها، لم يُحَمّل إحدى كتفيه حطباً أكثر من الأُخرى، ولم يَعرُج، فكانَ أوّل من عَلِقَ هُنا في الأعراف.. إنّه خيّاطُ الله، ينتخبُ لك طَوية قِماش، يُرهِفُ أصابعه لمَلمَسها و ثخانتها بين السبّابة و الإبهام، و يُغمضُ ليرى بابتسامةٍ غامضة شكل انسيابها عليك: أُلبسُه لِحاءَ شجَرٍ أو خيوطَ يَرَقة؟ سأغدره بالكتّان، كُلّما لامَسَ ماءً انكمش وأطبق على جسده ليقتله.. أو يبدو لي إنه من أبناء الخليج، بين عيونٍ في الأحساء و مراكبٍ في دارين، سأنتخبُ له قماشَ الجوخ لتمخره خيوط القطن و الصوف، لماذا أرأفُ بحاله أصلاً؟ لو أن قماشة قَدَره مصنوعةٌ من المَلمَل لحميته من رقّتها و انكسار خيوطها للنظرة العابرة.

لم يسألني ما إذا كُنتُ أُحبُّ قماش الخوخة أم لا، اختارَها لي و لم أُخبره بأنّني أذهبُ إلى البحرين كمن يقفزُ من نافذة غرفته لأبتاعها.. إنّه الآن يأخذ قياساتي ليُفَصّلَ لي بيجامةً للموت؛ أرفعُ يديّ و يلُفُّ شريطَ القياس على خصري، أَنظُرُ للأمام و يضعُ أوّل الشريط على كتفي، أرمُقُ موضع أقدامي فينفردُ الشريطُ و يبقى يهبط و يهبط في انهمارٍ مديدٍ كأنه مرساةٌ عمياء.

أَنظُرُ حولي، تبدو الأرضُ مِن هنا جداراً يُشاركني العُتمة، أرى الليل يتقافزُ في الخارج على أسلاك كهرباء.. العُتمة كهرباء الأبد، و ليسَ الليلُ خفّاشاً، و ليست الأسلاكُ غُصن الخفّاش.. هُنا، يُجلِسُني الخيالُ على رُكبته، يسخرُ من شوارعنا و يُمسّد لحيته، لحيتهُ لم تكن على وجهه، وجهه لم يكن في رأسه، ولم تكُن له أرجُلٌ أصلاً.

(2)

لم أذهب لمعرض إدغار آلان بو وحدي، صانعُ الرُّعب و أوّل من كتب جرائم القتل و روايات المُخبرين و يُعتبر مبتدعها و مؤسسها، (إرهابيُّ الأرواح) كما يقول معرضه، مُدمنُ الكحول حتى قيام الساعة، اليتيمُ الذي لا

تتغيُّر نظرة عينيه نحو الأشياء، يرمُقُ النساء و أطباق الطعام و الطيور بنفس النظرة.. لم يكُن طفلاً، كان الحلوى التي نسي ثمنها الطفل.

كان عليّ أن أُرافق أحداً معي يُلهي إدغار من أن يتلبّسني و أنا أجولُ في غرفته و بين أغراضه و حاجيّاته؛ تمّ تقسيم المعرض إلى زوايا، كل زاوية تحكي شخصيةً من شخصيات إدغار: زاوية الشاعر، زاوية القاص، زاوية الناقد، زاوية الصحفي.. إنه يُعتبر أوّل كاتب أمريكي يعتاش بشكل كامل مما يجنيه قلمه من أموال قليلة.. في الزوايا مخطوطات لنصوصه مثل قصيدتي "تيمورلنك" و "الغراب" و قصة "القط الأسود"، طبعات أولى من كتبه، رسائله و صفحات من الصحف التي نشر فيها أعماله المبكرة. تُعرَضُ حياته أيضاً من خلال نوادر الصور المُلتقطه له (أشهرها تلك التي أُخذت له بعد أربعة أيام من محاولته قتل نفسه بأخذ جرعة زائدة من الأفيون، صورة على مرآة و حُفِرَت عليها كلماتٌ من قصيدته "أرض الأحلام") و لوحات لشخصيّات تنفّست في قصصه و أغلفة رواياته (الغراب، القطة السوداء، النساء الجميلات، عوالم السحر و الظلام القوطي..). و على جدارٍ واسعٍ، عُلّقت دراسات أهم من قام بتقدير إدغار بعد وفاته، أوّلهم الشاعر والت ويتمان، وليس آخرهم النبيل كونان دويل، مؤلّف سلسلة قصص شيرلوك هولمز التي حرّرها إدغار بنفسه و التي قام المعرض بعرض مخطوطةٍ لإحدى حلقاتها بملاحظات إدغار عليها، يقول كونان: إنّ بو أرقى مؤلّف للقصص القصيرة المبتكرة على مر العصور".

في القطعة التي كتبها بو كملاحظة على نَصٍّ ما، يبدو توقيعه لوحةً أكثر منه جرّة قلم؛ يحاول أن يرسُم دوّامةً في كُلّ حَرفٍ منه، يُشابكُ الحروف و يفرطها كأنها مَوجةُ صَوت، تماماً كما يكمُنُ أحدهم خلف الباب و يفاجئك كالجنّي (بووو).. ليس هذا توقيعاً، هذا قصّةٌ قصيرة لم يكتشفها أحدٌ بعد.

ومن بين عادات إدغار الغريبة أنه يكرهُ الصفحات، و إذ اضطرّته الحياةُ إلى قراءة الكتابات مُسطّرةً في صفحات، فلم يكن عليه أن يكتب بهذا الشكل.. كان يبتاعُ طويات ورق مثل لفافات المناديل ورسائل الملوك القديمة، و يكتب فيها إلى مالا نهاية دون تقطيعها إلى صفحات، حتى إذا اعتاز المال و شحّ في جيبه الدرهم، ألصق عدّة صفحاتٍ ببعضها و صنع لنفسه طويةً للكتابة.

أشعُرُ أنها تخُصُّني أكثر من غيري، أقصدُ مخطوطة قصيدته "الأعراف" المستوحاة من السورة القرآنية، و الّتي عَنوَنَ بها أوّل مجموعةٍ شعريّةٍ له.. أرسلها لأحد أكبر النقاد الأمريكيين في وقته "جون نيل" و كتب في رسالته: أنا شاب، لم أبلغ العشرين بعد، و لو أنّ عبادتي العميقة للجمال كُلّه ستجعلُ منّي شيئاً، فهو أن أصيرَ شاعراً.. أُوشِكُ أن أنشُر مجموعةً شعرية، الجزء الأكبر منها كتبته ولم أبلغ الخامسة عشر من العمر.

أُحتُقر إدغار خلال حياته و لم يُقدَّر أدبيّاً. لذا، دُفِنَ لفَقره و شخصه المنبوذ بإهمال و بأدوات رخيصة جداً في حديقة كنيسةٍ ما. قيل أن المطر أفسد قبره بعد فترة، و قيل أن حدوث عِدّة محاولاتٍ لنبش قبره و الحصول على جُثّته كان أمراً وارداً (كانت سرقة الجثث أمراً عادياً من قِبَل عُلماء التشريح)..هكذا فَسُد قبره و طفى تابوته

المفتوح على الطين و تنفّس مرة أخرى. في عمليّة نقل تابوته من قبره الأوّل (يبدو أن قبرَهُ خافَ منه) إلى آخر، تمّ تشخيص الجثه بطريقةٍ ما من جديد (وُصفت بأنها كانت أشبه بجسدٍ ارتطم بالأرض بشدّة)، و هذه القطعة الخشبيّة المُخيفة المعروضة هنا هي جزء من نَعشه القديم.. نعشه الّذي أَخرج صدرَهُ و نازَلَ الهواء: لن تُخيفَني أيها العالم، أيها الطين، أيها الظلام، يا كائنات ما بعد الدفن وما قبل الولادة، يا عِلّة الذهب و علاج القضبان، أَدُقُّ على بابك أنت، أوشكُ، لكنني لا أدق، فتفتحُ الباب: لا تخف، خُذني، أُريدُ طاجَنَ لبنٍ و كعكاً دافئاً، لا أكثر.

(3)

من رافقني إذًا إلى إدغار؟ نخلةٌ وحيدة، سعفُها وسائدٌ للجن، يكادُ الله لقُبحها أن يغفر بها لكُلّ البشر. بيتُها مهجورٌ و بعيدٌ عن بيوتنا و مزارعنا، نخافها لأنها تسيرُ في الليل مُذ مات الرجل الذي غرسها و هاجر أبناؤه.. نهابُها عند النوم، تُطِلُّ علينا من نوافذنا واحدةً واحدة، لا نخرج لها ولا نفتح الباب. نخلةٌ تعبت من النّأي.. قُلتُ لها: أنا و أنتي -يا ابنة العم- على الغريب، و الغريبُ اليوم هو إدغار. أَمسَكَتني من يدي، و دفَعَت الباب بثقة الأُم الغاضبة: هذه غرفة إدغار، إفعل ما بدى لك، لن يجرؤ على الاعتراض. كان ذلك ما قالَته لي "أم السعف و الليف"، و أعطيتها مفتاح بيتي، و فتحتُ لها النوافذ.